النشاط التجارى لمدينة ملندة وأثره على أوضاعها السياسية والاجتماعية في الفترة من منتصف القرن ٥هـ/١١م وحتى بداية القرن ١٠هـ/١٦م

د. حسام حسن إسماعيل عبدالغني
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم – جامعة المنيا

الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تقف بالدرس التاريخي على حجم الدور التجاري لإحدى مدن الساحل الشرقي الإفريقي، ألا وهي مدينة ملندة، وما ترتب عليه من أثر مباشر على الحياتين: السياسية والاجتماعية لهذه المدينة. حيث تبوأت مدينة ملندة مكانة تجارية بارزة وسط مدن هذه المجموعة، وازدادت هذه المكانة بعد دخول الإسلام بها منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ولقد تم اختيار الدور التجاري كعنوان رئيس للدراسة؛ من منطلق أثر الموقع الجغرافي على مدينة ملندة، والذي صبغها بالصبغة التجارية في المقام الأول، هذه الصبغة انعكست صداها على الحياة السياسية الماليندية طمعًا في الإيقاع بها، أو النيل منها، ومن ثم السيطرة على خيراتها، كما ظهر هذا الدور جليًّا على الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة لسكان ملندة. ولإبراز هذا الدور، ستدور محاور الدراسة حول المباحث الآتية:

المبحث الأول: الموقع الجغرافي لمدينة ملندة وأثر الإسلام بها.

المبحث الثاني: الدور التجاري لملندة.

المبحث الثالث: أثر النشاط التجاري لمدينة ملندة على أوضاعها السياسية.

المبحث الرابع: أثر النشاط التجاري لمدينة ملندة على الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة. وسنفصل الآن القول في كل مبحث.

The commercial role of Malindi and its impact on the political and social life in the period from

The middle of the 5th Hijri/ 11th AD century and until the beginning of the 10th Hijri/ 16th AD century.

This study attempts to take a historical look at the size of the commercial role of one of the cities of the East African coast, namely the city of Malindi, and the direct impact it had on the political and social life of this city. The city of Malindi occupied a prominent commercial position among the cities of this group, which had a prominent commercial activity in the time period of the study.

The commercial role was chosen as the main title of the study, based on the impact of the geographical location of the city of Malindi, which gave it a commercial character in the first place. This character reflected its resonance on the Malindian political life in order to trap it, or to undermine it, and then control its goods. This role also appeared clearly in the social life and the manifestations of the Malindian people civilization. To highlight this role, the study will focus on the following investigations :

The first topic : the geographical location of the city of Malindi and the impact of Islam on it.

The second topic : the commercial role of Malindi.

The third topic : the impact of the commercial activity of the city of Malindi on its political situation.

The fourth topic : the impact of the commercial activity of the city of Malindi on its social life and manifestations of civilization.

المبحث الأول: الموقع الجغرافي لمدينة ملندة وأثر الإسلام بها.

•الموقع الجغرافي والمعماري للمدينة وانعكاساته التجارية

حبا الله ملندة بموقع جغرافي متميز، الأمر الذي لفت نظر الجغرافيين العرب والرحالة الأوروبيين، فأسهبوا في وصفها، وأشادوا بطبيعتها الخلابة، وقد عرف الجغرافيين العرب المدينة باسم ملندة، وأشاروا إلى أنها مدينة في بلاد الزنج[١] تقع على ضفة البحر، نعتوها بعذوبة مائها، وتفرد أهلها بالصيد سواء على مستوى البر، أو مستوى البحر[٢].

أما الرحالة الأوروبيون، فقد أطلقوا عليها اسم مالندي، ولعلنا نلحظ الفرق في كتابة اسم المدينة عند الجغرافيين العرب والرحالة الأوربيين، ولكن من وجهة نظري لا أجد بونًا شاسعًا بين الكلمتين، لاقتراب الجذر اللغوي لاسم المدينة عند الاثنين، والمتمثل في الميم واللام والنون والدال، ولهذا يمكننا إطلاق أي الاسمين على المدينة، وإن كنت أرجح في البحث استخدام الاسم العربي (ملندة).

وقد توسع الرحالة الأوروبيون في وصفهم للمدينة، حيث ذكروا أنها تقع على الساحل المفتوح، تم بناؤها على منطقة صخرية بارزة في البحر، تمتاز بجمال مظهرها[٣]؛ نظرًا لكونها تطل على سهل شاسع، تزينه أجمل الحدائق، كما أنها امتازت

---

(١) بلاد الزنج: هي الأراضي الساحلية في شرق إفريقية، وهي المنطقة الممتدة من الصومال حتى موزمبيق (جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ١٣١.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، (د.ت)، ج١، ص ٥٩؛ الحميري: الروض المعطار الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م، ص ٥٤٤.

(3) journal du voyage de vasco de gama dans l'Inde in voyageurs anciens et modernes, ou choix de relations de voyages les plus interessantes et les plus instructives, par: M.Edouard Charton, Tome3 (voyageurs modernes, quinzieme siècle et commencement du seizieme), ed. Bureaux du magasin pittoresque, Paris, 1861,p 240; Gasper Correa, the three voyages of vasco da gama and his viceroyality, from the lendas da india=

بكثرة نخيلها، للحد الذي زرعت فيه أشجار النخيل داخل منازل المدينة جميعها[١]، وامتازت ملندة أيضًا بالرحابة والسعة، كما أنها كانت تتمتع بسور يمتد بطول الشاطئ[٢]، ولذلك عرفت المدينة بشكلها المهيب، وبعظمة أبنيتها، وطول أسوارها[٣].

كذلك امتازت المدينة بتنوع ديمغرافى لسكانها، حيث سكنها كل من العرب، والفرس، والتجار الهنود[٤].

وبالنظر للوصف الذي بين أيدينا للمدينة بين كل من الجغرافيين العرب، وبين الرحالة الأوربيين، نلحظ أن الرحالة الأوربيين توسعوا في وصفهم لمدينة ملندة، على عكس اقتضاب الجغرافيين العرب لوصفهم لها، وهذا مرده من وجهة نظرى يعود لإدراكهم للأهمية الإستراتيجية للمدينة، ولموقعها التجاري المتفرد النابع من طبيعتها الجغرافية، ومدى تأثير ذلك على الحركة التجارية للساحل الشرقي الإفريقي.

ونظرًا لهذه الطبيعة الساحلية المتفردة، عرفت ملندة التجارة كأحد أهم مرتكزاتها الاقتصادية، ساعدها على ذلك طبيعة موقعها على الساحل الشرقي الإفريقي، وعلاقاتها التجارية بالتجار العرب، الوافدين عليها عبر أسفارهم التجارية المرتبطة اقتصاديا بالعديد من مدن الساحل الشرقي الإفريقي ومنها ملندة، الأمر الذي أتى ثماره

=of gaspar correa, translated from the Portuguese with notes and introduction by Hon. Henry Stanley, printed for the Hakluyt society, London,1869, p109-110.

([1]) vasco de gama, la relation du premier voyage aux indes (1497-1499), editions chandeigne, paris, 1998, p68.

([2]) *Chroniques de João de Barros, Damião de Goes, Gaspar Corea, Garcia de Resende*, dans *Les grands navigateurs et colons portugais du XV^e siècle et du XVI^e siècle*, Tom. III, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro Almeida, éd. Ducharte, Paris, 1939, p. 91-92; G. Bouchon, *Op. cit.*, vol 3, p 93.

([3]) gaspar correa, op. cit., p.110-111.

([4]) davis, r.hunt, encyclopedia of African history and culture, library of congress cataloging-in-publication data, vol 2, p 150.

متمثلا في العديد من حالات المصاهرة التي تمت في هذه المناطق بين التجار العرب والسكان الأصليين[١]، وبالتالي، بدأ التجار العرب في الاستقرار بملندة، ونقل الفكر والتراث الإسلامي إلى مدن الساحل الشرقي لإفريقيا.

- **وصول الإسلام إلى ملندة عبر قوافل التجارة**

عرف العرب الساحل الشرقي لإفريقيا قبل دخول الإسلام، وذلك عن طريق عمليات التجارة المستمرة التي كان يقوم بها التجار العرب في ذلك الوقت، كما أنهم اندمجوا مع السكان الأصليين للساحل الشرقى لإفريقيا، واستطاعوا أن يكونوا دويلات عربية عن طريق التزاوج، والمصاهرات بينهم وبين السكان الأصليين، ومع ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، أصبح هناك دافع للتجار للهجرة إلى الساحل الشرقى لإفريقيا لنشر تعاليم الدين الجديد، فتوالت الهجرات العربية للساحل الشرقى لإفريقيا من: البحرين، وعمان، والأحساء، واليمن، وحضرموت، ووصلت الهجرات العربية إلى ملندة، وسوفالا[٢]، وكلوا[٣]. وزنجبار[٤]، وممبسة[٥]، وقد طبعت هذه البلاد بالحضارة

---

(١) جمال قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة– مصر، ١٩٩٦م، ص ٦١.

(٢) سوفالا: آخر مدينة كبيرة بأرض الزنج اشتهرت بتجارة الذهب (ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار صادر، بيروت– لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج ٣ ص ٢٢٤).

(٣) كلوا: مدينة تقع جنوب ممبسة، أمام الساحل الشرقي لإفريقيا، تم تأسيسها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وتعد كلوا مركزًا تجاريًّا كبيرًا في المحيط الهندي (ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، قدم له وحققه ووضع فهارسه وحواشيه عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط– المغرب، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢ ص ١٢١).

(٤) زنجبار: وتعني ساحل الزنج، وقد أطلقها المسلمون على جميع ما عرفوه من ساحل إفريقيا الشرقي، وأطلقوا على البحر المقابل له بحر الزنج (صلاح العقد، جمال زكريا قاسم: زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية– القاهرة، ١٩٩٥، ص ١).

(٥) ممبسة: وتعرف أيضا بمنبسة، وهى مدينة كبيرة بأرض الزنج، وإليها تأتي المراكب من كل مكان (ياقوت الحموى: معجم البلدان،ج٥ ص ٢٠٧).

العربية، وكان من أبرز مظاهرها انتشار اللغة السواحيلية، التي هي مزيج من اللغة العربية واللغات الإفريقية التي كانت سائدة بين السكان على الساحل(١).

وبالتالي، كان من الطبيعى أن يقوم المسلمون المهاجرون إلى الساحل الشرقي لإفريقيا بنقل لغتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم(٢)، ولكن لم يعمد المسلمون المهاجرون إلى تغيير أوضاع وتقاليد المجتمعات الداخلين عليها، طالما كانت هذه الأوضاع والتقاليد لا تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي(٣) ولقد بدأت أغلب الهجرات التجارية إلى مدينة ملندة منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عن طريق التجار العمانيين الذين استقروا بها، وكانت وظيفتهم الرئيسة هي التجارة، ولكثرة التجار العمانيين الموجودين بملندة أطلق عليها عمان الصغيرة(٤).

وبالتالي، نرى أن توجه التجار العرب، كان دائمًا تجاه مدن الساحل الشرقى لإفريقيا ومن بينها ملندة؛ نظرًا لقرب المسافة بين الساحلين العربي والإفريقي(٥)، كما أن نشأتهم في بيئة بحرية في جنوب الجزيرة العربية، جعلت من الجزر الساحلية في الساحل الشمالي لإفريقيا الوجهة الرئيسة لهم(٦). وأن نزوحهم ذا المرجعية الدينية

---

(١) ف.ف.ماتفييف: تطور الحضارة السواحيلية، مقال داخل تاريخ أفريقيا العام "أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر"، مطبوعات اليونسكو، باريس، ١٩٨٨م، مج ٤ ص ٤٦٨؛ شوقى عطا الله الجمل– عبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ١٩٩٦م، ص ١٧.

(٢) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الطبعة الأولى، مكتبة المتنبي، الدمام– المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٩م، ص ٤٧٥.

(٣) شوقي الجمل: تاريخ المسلمين في أفريقيا، ص ٩.

(٤) المغيري: جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد على الصليبي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ١٦٦.

(٥) شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ٤١– ٩٠٤هـ/٦٦١–١٤٩٨م، نشر عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٤٤.

(٦) شوقي عطا الله الجمل– عبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، ص٦.

لملندة، أسهم بطريق غير مباشر في جعل مدينة ملندة أحد أهم المراكز التجارية في الساحل الشرقي الإفريقي.

المبحث الثاني: الدور التجاري لملندة:

كان للطبيعة الساحلية لملندة، والخصوصية الجغرافية لأراضيها، وسواحلها الممتدة على الساحل الشرقي الإفريقي، ودخول الإسلام فيها عن طريق التجار العمانيين الأثر المباشر في بزوغ نجم ملندة التجاري، ورواج الحركة التجارية بها في ذلك الوقت، وقد عرفت ملندة كل أشكال التجارة نتيجة وفرة السلع والمواد الخام بفضل ازدهار قطاعي الزراعة والصناعة، فضلا عن وفرة الثروة الحيوانية، ففي المجال الزراعي اشتهرت بزراعة وبيع الأرز، والذرة، والدخن، والحنطة، ومختلف أنواع الفاكهة، وخاصة البرتقال(١)، الذي لفت نظر البرتغاليين، فحملوه معهم عند عودتهم لبلادهم؛ وذلك لحاجة مرضاهم إليه من أجل الشفاء(٢).

كما تمتعت ملندة بثروة حيوانية، تمثلت في كثرة أعداد أغنامها ذات الذيول الضخمة، ووفرة لافتة في ثروتها الداجنة، إلى الحد الذي وصلت فيه لدرجة الاكتفاء الذاتي، فقام سكانها ببيع ما فاض عنهم من الدجاج والبيض للبرتغاليين(٣).

كما امتهن أهل ملندة حرفة صيد الأسماك، واستغلوها اقتصاديا في معاملاتهم التجارية، أهلهم لذلك اتساع سواحلهم، مما أكسبهم براعة في عمليات الصيد، أدت لوفرة كبيرة في أسواقهم مما تم استخراجه من: الأسماك، وثمار البحر، والرخويات، والتي كانوا يقومون بتجهيزها إما للأكل أو للتجارة الداخلية، وزيادة من الإفادة من الامتداد الساحلى المالندي، استغل سكان ملندة براعتهم في مهنة الصيد، في استثمار ما استخرجوه من سواحلهم، حيث قاموا بعقد الصفقات التجارية القائمة على صيد وبيع

(1) d.barbosa, a description of the coast of east Africa, p22.
(2) Gasper Correa, the three voyages of vasco da gama, p110.
(3) vasco de gama, la relation du premier voyage aux indes, p115.

ما استخرجوه من: الصدف، واللؤلؤ، وأصداف السلاحف، الأمر الذي در عليهم الكثير من المال، كما تفننوا في تطويع ما استخرجوه من البحار، فصنعوا من الأصداف التي تم اصطيادها: الصحاف، والملاعق، والقلائد، ثم قاموا ببيعها في عمليات التجارة[١].

وفي مجال النشاط التجاري المتعلق بالصناعة، عرفت ملندة وفرة في مناجم الحديد، حيث اشتغل بهذه المهنة عدد كبير من سكانها[٢]، واستطاعوا أن يحققوا أرباحًا طائلة من وراء تصدير هذا المعدن إلى العديد من البلدان، وكان لحديد مدينة ملندة شهرة واسعة، وتميز بنقائه عن غيره من الحديد الموجود في المناطق الأخرى، فقد كان مطلوبًا بشدة في بلاد الهند ليصنع منه السيوف، وكان أهالى بلاد الهند يفضلون الحديد الملندة عن الحديد المستخرج من الهند نفسها؛ نظرًا لشدة نقائه، واستجابته لمراحل التصنيع المختلفة[٣]، وإلى جانب التجارة في الحديد، تاجر أهل ملندة في المعادن النفيسة كالذهب والعاج، كما تاجروا في الشمع[٤].

ولقد انتقلت التجارة الماليندية نقلة نوعية، من خلال التبادل التجاري الذي تم بين التجار العرب والتجار الماليندين، والذى بدأ من لحظة استقبال ملندة جالية كبيرة من

---

(١) الإدريسى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١ ص ٥٩؛ ف.ف.ماتفييف: تطور الحضارة السواحيلية، ص ٤٥٤، ٤٥٥.

davis, r.hunt, encyclopedia of African history and culture,p 150

(2) L. Devic, *Les Pays des Zendjs (la côte orientale d'Afrique au Moyen-Âge)*, Paris, 1883, p. 70; C. Coquery-Vidrovitch, *Histoire des villes d'Afrique noires des origines à la colonisation*, Paris, 1993, p. 143.

(٣) الإدريسى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١ ص٥٩؛ جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ص ١٣٩.

(4) L. Devic, *Les Pays des Zendjs (la côte orientale d'Afrique au Moyen-Âge)*, p. 70; C. Coquery-Vidrovitch, *Histoire des villes d'Afrique noires des origines à la colonisation*, p. 143.

التجار العرب، الذين أتوا إلى هناك للبحث عن الذهب والعنبر والعاج، حيث كانوا يقومون بمبادلة هذه المنتجات بالقطن والنحاس والتوابل(١).

والواقع، إن منتجات ملندة– مثل الحبوب والذهب– قد وصلت إلى أسواق مدينة عدن، ووجدت لها شهرة ورواجًا كبيرًا هناك(٢). هذا فضلا عن أن الجزء الأكبر من الذهب، الذي كان يصل إلى مصر بواسطة تجار الكارمية، كان مصدره مدن الساحل الشرقي لإفريقيا، وفي مقدمتها ملندة، وسوفالا، وكلوا، وممبسة(٣).

ولم يقتصر النشاط التجاري لمدينة ملندة على التبادل التجاري مع التجار العرب، بل امتد ليشمل التجارة مع الهندوس، الذين استقروا فيها وفى عدد آخر من الموانئ الساحلية، وقد ظنهم البرتغاليون نصارى في أول الأمر، مع العلم أن التجار الهندوس الماكثين في ملندة كانوا على درجة كبيرة من التدين حسب مقتضيات معتقداتهم، والتي ألزمتهم بعدد من التعاليم من بينها: ألا يَطْعَموا أي شيء له روح، ولا يتناولون لحم البقر في طعامهم، ولقد اتسع حجم التبادل التجاري في ملندة جراء استقرار التجار الهندوس في أراضيها، فلم يكن استقرارهم استقرارًا مؤقتًا، كما هو الحال في العديد من مدن الساحل الشرقى لإفريقيا، بل كان مستديما؛ لأن حاكم ملندة عرف عنه التسامح والتعاطف، دون غيره من حكام المدن الساحلية، كحاكم ممبسة على سبيل المثال، وبالتالي، استقر التجار الهندوس في ملندة، ومارسوا تجارتهم بصورة آمنة وواضحة(٤).

ولم تقتصر العلاقات التجارية الماليندية على التجار العرب، والتجار الهندوس فحسب، بل كان لملندة نشاط تجاري ملحوظ مع سكان كامباي، فطائفة كبيرة من

---

(1) J. Laharpe, *Abrégé de l'histoire générale des voyages*, Tom. I, Paris, 1820, p. 15; G. Bouchon, *Vasco de Gama*, Fayard, 1997, p. 159.

(2) R. Pouwels, *Op. cit.*, p. 398.

(3) R. Pouwels, *Op. cit.*, p. 393.

(4) pearson Michael, port cities and intruders, the johns hopkins university press, London, 1998,p 42.

سكان كمباي، جاءوا إلى مدينة ملندة من أجل الحصول على الذهب والعنبر، والعاج، والمواد الراتنجية، والشمع، وفي المقابل يبيعون لسكان مدينة ملندة ما يجلبونه معهم من: الأفاويه، والبهار، والنحاس، والزئبق، والأقمشة[١]، وعلى إثر ذلك كانت مدينة ملندة، وممبسة، وكلوا، تحمل على عاتقها توزيع جميع المنتجات الهندية، إلى جميع المناطق والمدن الإفريقية[٢].

كما كان لمدينة ملندة نشاط تجاري مع مدينة بتهنة[٣]، فكان سكان بتهنة ينقلون بضائعهم التجارية المتمثلة في الحديد، وجلود النمور، على رؤوسهم وعلى ظهورهم لكى يبيعوها في مدينة ملندة[٤].

وقد وثق القادة والمؤرخون البرتغاليون أوجه التبادل التجاري الذي ربط بين التجار المسلمين القادمين من الجزيرة العربية ومنطقة الكوجرات[٥] وبين ملندة؛ فقد لاحظ فاسكو دى جاما[٦]– عام٩٠٣هـ/١٤٩٨م

---

(١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، نقله إلى العربية يوسف كمال، الطبعة الأولى،القاهرة، ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م ، ص ٣٢٠.

(2) N. Chittick, Indian relations with east Africa before the arrival of the Portuguese, in journal of the royal asiatic society (new series), no.112, 1980, p 120.

(٣) بتهنة: مدينة من مدن ساحل سوفالا (الإدريسى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١ ص٦٠).

(٤) الإدريسى: المصدر السابق، ص ٦٠.

(٥) الكوجرات: إقليم كبير من بلاد الهند يضم العديد من المدن منها كمباى، وتانة، وصومنان، وسندان، ونهلوارة، وناكور، وجالور، وقد اشتهر هذا الإقليم بالثراء الكبير؛ نظرًا لما وجد بينه وبين شواطئ المحيط الهندي من عمليات تجارية (القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبع بمطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، ج ٥ ص ٧٠: ٧٣).

(٦) فاسكو دي جاما: ولد فاسكو دا جاما في بلدة سينيس Sines الساحلية الصغيرة، التي تقع على بعد ٦٠ ميلا جنوب لشبونة، وذلك خلال العقد السادس من القرن ٩هـ/ ١٥م (على اختلاف ما بين المؤرخين في تحديد العام). والد فاسكو هو إستيفاو دا جاما Estevão da Gama، وقد كان بحارًا وضابطًا في خدمة البلاط البرتغالي، أما والدته، فتدعى إيزابيل سودري Izabel Sodré، ذات الأصول الإنجليزية. ولا شك في أن مولد فاسكو على ساحل البحر ساعده على أن يكون بحارًا منذ=

والفاريز كابرال[١]– عام٩٠٥هـ/١٥٠٠م– وجود العديد من سفن التجار العرب الممتلئة بالبضائع، والتي كانت ترسو بميناء مدينة ملندة[٢].

=صغره؛ فأتقن المهارات الأساسية للملاحة، وأصبح ماهرًا في التعامل مع القوارب والسفن وأشرعتها منذ أن كان في سن الخامسة عشرة. كما سمع فاسكو منذ صغره روايات تحكى عن البحر المحيط وسواحله، وكان يراقب السفن المبحرة جنوبًا إلى موانى البحر المتوسط وبلاد المغرب وسواحل غرب أفريقيا، وهي الأمور التي أكسبته شغفا للإبحار باتجاه هذه المناطق. وقد التحق فاسكو منذ صغره بأحد مدارس ايفورا Évora، التي اتقن فيها دراسة الملاحة والرياضيات وعلم الفلك. أما بالنسبة لبدايات حياته المهنية، فقد خرج فاسكو عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م في أول مهامه البحرية لصالح الحكومة البرتغالية؛ إذ إن الملك البرتغالي يوحنا الثاني Jean II أرسله في ذلك العام إلى سيتوبال Setubal للاستيلاء على السفن الفرنسية؛ وذلك ردًا على غارات الأسطول الفرنسي ضد السفن البرتغالية، وقد أثارت مهارة فاسكو وقدراته العسكرية إعجاب وتقدير الملك والمسؤولين البرتغاليين. جدير بالذكر، إن هناك علاقة وثيقة قد ربطت ما بين فاسكو وبين دوم مانويل الأول Manuel– ابن عم الملك يوحنا ووريثه في الحكم عام٩٠١هـ/ ١٤٩٥م–، لذلك عندما احتاج الملك يوحنا إلى قائد للأسطول البرتغالي، كان مانويل على يقين أن فاسكو هو الرجل المناسب للقيام بهذه المهمة. وعلى ذلك لم يكن مستغربا عند وصول دوم مانويل للحكم وانخراطه في مشروع الاكتشافات الجغرافية التوسعية أن يجعل فاسكو هو القائد لأولى أساطيله الراغبة في الوصول إلى بلاد الهند وذلك عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م. كان فاسكو دا جاما معروفًا بين رجاله وجنوده بقساوة في الطبع، لكنه عرف كذلك بعدله ورجاحة عقله. وسرعان ما أثبتت الأحداث القدرات والخبرات الملاحية والعسكرية التي كان يتمتع بها فاسكو، والتي مكنته من تحقيق الحلم البرتغالي بتجاوز الساحل الجنوبي للقارة الأفريقية (الذي عرف لاحقًا برأس الرجاء الصالح) والوصول للساحل الشرقي لأفريقيا، ثم بلوغ السواحل الهندية.

Rachel A. Koestler-Grack, *Vasco da Gama and the Sea Route to India*, Chelsea House Publishers, 2006, pp. 8-20.

(١) الفاريز كابرال: ولد بيدرو الفاريز كابرال عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م (على أرجح الأقوال) في مدينة بلومنت Belmonte الواقعة في وسط البرتغال، بينما كانت وفاته بمدينة سانتاريم Santarem وذلك عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠م. وعرف كابرال بكونه واحدًا من النبلاء البرتغاليين، كما إنه يعد واحدًا من أهم القادة العسكريين والملاحين في التاريخ البرتغالي. وقد ارتبط هذا القائد بعلاقات وثيقة مع الملك البرتغالي مانويل الأول؛ فنال احترامه وحصل منه على امتيازات مختلفة، وذلك عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م. وقد ارتبطت شهرة كابرال بخروجه على رأس الأسطول الذي توجه إلى بلاد الهند عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، وقد تمكن كذلك خلال هذه الرحلة من اكتشاف الساحل البرازيلي.

Chroniques, t. IV, p. 30, 33-34, 107-108; V. Godinho, *L'économie de l'empire portugais,* p. 561; G. Bouchon, "A propos de l'inscription de Colombo (1501): quelques observations sur le premier voyage de João Da Nova dans l'océan Indien", in *L'Asie du Sud à l'époque des grandes découvertes*, éd. Variorum Reprints, Londres, 1987, p. 241.

(٢) M. Pearson, "Indians in East Africa: The Early Modern Period", in *The world of the Indian Ocean, 1500-1800*, Hampshire, 2005, p. 234-235.

ويبدأ الطريق البحري لهذه الرحلات العربية القادمة إلى مدينة ملندة ومدن الساحل الشرقي الإفريقي، من موانئ الخليج العربي من سيراف[١]، وعمان، حتى تصل إلى أول مرسى يقابلها على الساحل الإفريقي وهو حفون[٢]، ثم تبحر السفن جنوبًا بمحاذاة الساحل حتى تصل إلى مدينة ملندة، وتستقر فترة لتمارس عمليات التجارة الخاصة بها، ثم تبحر من ملندة حتى تصل مقديشيو[٣]، ثم إلى ممبسة، ومنها إلى زنجبار، ثم تختم رحلتها بالوصول إلى مدينة كلوا[٤].

وبالقياس الزمني للرحلات التجارية المقطوعة مباشرة من الساحل العربي إلى السواحل الإفريقية، كانت الرحلة تستغرق من ثلاثة لأربعة أسابيع، إلا إن توقف السفن على الطريق من أجل عمليات التجارة والتزود بالمؤن والماء، كانت دائمًا ما تؤخر عمليات الوصول، ثم تبدأ بعد ذلك رحلة العودة، والتي تسير فيها السفن أيضًا بمحاذاة الساحل الإفريقي، لمواصلة عمليات التجارة، مع الأخذ في الاعتبار أن هناك بعض السفن لا تتوقف في عملية العودة، وتعود مباشرة إلى سواحل جزيرة العرب، وبالتالي كانت الرحلة كاملة تستغرق مدة ما بين ستة أشهر لثمانية أشهر، من وقت خروجها من السواحل العربية، وحتى عودتها مرة أخرى[٥].

---

(١) سيراف: مدينة تقع على ساحل بحر فارس، وكان التجار يطلقون عليها قديما شيلاو (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣ ص ٣٩٤، ٢٩٥).

(٢) حفون: ويطلق عليها أيضًا رأس حافون، وهى شبه جزيرة تقع على الساحل الشمالي الشرقي للصومال

Jorge de torres rodriguez, the history of archaeological research in somaliland and Somalia, northeast African studies, vol 18, nos1-2,2018, p271.

(٣) مقديشيو: مدينة ساحلية تقع في أول بلاد الزنج، في جنوب اليمن في بر البربر (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥ ص ١٧٣).

(٤) شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي، ص٦٨.

(٥) شوقي عبد القوي: المرجع السابق، ص٦٩.

من ناحية أخرى، يشير المؤرخ البرتغالي دامياو دي جويز إلى أن التجار المسلمين القادمين من كمباي[١]- الميناء الأهم في منطقة الكوجرات- كانوا يمثلون الجالية التجارية الأكثر وجودًا ونشاطًا في ملندة [٢].

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الوجود المكثف للتجار المسلمين في ملندة، جاء نتيجة للجهود التي قام بها حكام المدينة، والتسهيلات والمميزات التي منحوها للتجار من أجل ارتياد ميناء مدينتهم؛ ولأجل ذلك، قاموا بتعيين عدد من القضاة المسلمين والكتبة لتنظيم شئون هؤلاء التجار[٣].

ونظرا لكون مدينة ملندة تعد واحدة من أهم المراكز التجارية على الساحل الشرقي لإفريقيا، وبفضل تنوع منتجاتها وجودتها، فقد دخلت في علاقات تجارية مميزة مع ساحل مالابار الهندي، وجزيرة سيلان[٤]، ثم مع الصين حسب ما ورد في أحد المراجع الأوروبية، من أخبار تشى بوجود اتصال تجاري حدث بين الساحل الشرقي لإفريقيا وبين الصين، وذلك في الرحلة الأولى التي قام بها Zeng-He، والتي استغرقت عامين منذ ٨١٩هـ/١٤١٧م وحتى عام ٨٢١هـ/١٤١٩م، وقد نزل بسفنه التجارية في

---

(١) كمباي: من أهم مدن سلطنة الكوجرات، اشتهرت بإنتاجها للملابس القطنية، والحريرية، وبفضل كامباى أصبح لسلطنة الكوجرات أهمية كبيرة على الساحل الغربى لبلاد الهند.

E.alpers, Gujrat and the trade of east Africa, in the international journal of African historical studies, vol 9, no.1, 1976, p 25.

(2) C. De Silva, "Indian Ocean but not African Sea : The Erasure of East African Commerce from History", in *Journal of Black Studies*, Vol. 29, N. 5, 1999, p. 691.

(3) R. Pouwels, “Eastern Africa and the Indian Ocean to 1800: Reviewing Relations in Historical Perspective”, in *The international journal of African Historical Studies*, Vol. 35, N°. 2/3, Boston, 2002, p. 397.

(4) J. Stella, *Essai sur l’histoire du Portugal depuis la fondation de monarchie jusqu’à la mort de D. Pédro*, Tom. I, Bruxelles, 1841, p. 95.

مدينة ملندة للقيام بعمليات التجارة هناك، وبخصوص هذه الرحلة نجد أن المراجع الأجنبية قد عرضت رأيين لتفسير هذه الرواية: الأول أنه زار مدينة مالين؛ ونظرًا للتشابه في اللفظ بين المدينتين، فقد ظن الباحثون أنه زار مدينة ملندة للقيام بالعمليات التجارية، علما بأنه لم يعثر في ملندة على أي أثر من الآثار الصينية المكتشفة في الساحل الشرقى، في حين وجدت بعض هذه الآثار في مدينة كلوا، أما الرأي الآخر، فيشير إلى أن Zeng–He قد زار مدينة كلوا، والتقى هناك بمجموعة من التجار الماليندیين، والذين كانوا يسيطرون على العمليات التجارية داخل هذه المدينة، وظهر هذا من خلال مسجدهم ومقابرهم، الموجودة بالقرب من ميناء كلوا القديم، وبالتالي، فإن المصادر الصينية كانت تشير إلى أنه التقى مع هذه الطائفة من التجار الماليندیين، ولم يدخل إلى مدينة ملندة[١]، وهذه الرواية هي أقرب من وجهة نظري إلى الحقيقة.

أما من حيث النقود المستخدمة في المعاملات التجارية في مدينة ملندة، وغيرها من مدن الساحل الشرقي الإفريقي، فنجد أن أصداف الودع الغوري، هي أول العملات التي ظهرت في ملندة ودول الساحل الشرقي الإفريقي، ثم تلاها بعد ذلك الخرز الزجاجية، ثم عقبها ظهرت النقود المعدنية، والتي كانت تصنع في مدينة كلوة ومقديشيو، من البرونز والفضة، وبالتالي، فالتجارة في مدينة ملندة، وغيرها من مدن الساحل الشرقي الإفريقي قد تطورت بصورة كبيرة، وفرضت معها تغير نظام الدفع من الودع الغورى إلى الخرز الزجاجية، وأخيرًا النقود المعدنية، وهذا يبين كبر حجم العمليات التجارية التي كانت تتم في ذلك الوقت[٢].

([1]) f.chami, kilwa and the Swahili towns, p40.

([٢]) ف.ف.ماتفييف: تطور الحضارة السواحيلية، مج ٤ ص ٤٦٥،٤٥٥.

المبحث الثالث: أثر النشاط التجاري لمدينة ملندة على أوضاعها السياسية:

– الصراع على فرض الهيمنة على مدن الساحل الشرقي الإفريقي.

لم تكن السياسة الداخلية لمدينة ملندة، على الدرجة نفسها التي شهدتها سياستها الخارجية وبخاصة في تعاملهم مع البرتغاليين، فقد تعرضت مدينة ملندة للعديد من الصراعات الداخلية مع مدن الساحل الشرقي لإفريقيا، ومرد ذلك كله الحفاظ على المكانة التجارية للمدينة، أو أملا في اتساع نفوذها على حساب الممالك المجاورة.

ويعد الصراع المالندي الممباسي ممثلا في حاكم البلدين، من أقوى أنواع النزاع والمنافسة بين الجارتين البحريتين، وذلك من أجل بسط النفوذ التجاري، والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الساحل الشرقي الإفريقي، لذا لم يقنع أيٌّ من الحاكمين بلقب شيخ، بل أصرا على تلقيب نفسيهما بلقب سلطان، ومن أجل نيل شرف بسط النفوذ على مدينة ممبسة، لجأ حاكم ملندة إلى طلب المساعدة من البرتغاليين، من أجل مساعدته عسكريًّا أمام حاكم ممبسة(١).

واستمرارًا لحالة عدم الاستقرار والتوتر بين ملندة وممبسة، حاول حاكم ملندة عام ٩٠٥هـ/١٥٠٠م أيضًا الاستعانة بكابرال أحد القادة البرتغاليين لمساعدته للوقوف ضد حاكم ممبسة، والذي كان يسعى لأخذ الثأر من حاكم ملندة جراء مساعدته للبرتغاليين، ولكن كابرال لم يستجب لطلب حاكم ملندة في ذلك الوقت، وغادر مدينة ملندة وتوجه ناحية السواحل الهندية(٢).

ولقد عرف عن شيخ مدينة ملندة، محاولاته التي لا تفتر لفرض سيطرته على ما جاوره من بلدان الساحل الشرقي، لذا كان في صراع دائم مع حكام هذه المدن،

---

(1) C. De Silva, "Indian Ocean but not African Sea, p 686.

(٢) جيان: وثائق تاريخية، ص ٢١٢.

ودعواه أنه من سلالة حكام كيتو، وادعاؤه أن مدينتي كيونه، وكليفى، والتي تقعان جنوب مدينة ملندة تدخل في نطاق أملاكه، كما دخل أيضًا في خلاف مستمر مع شيخ العوجا[١].

- **الصراع مع جماعة الموزونجوللوس:**

أما الخطر الداخلي الثاني، والذي كان يهدد مدينة ملندة تجاريًّا وأمنيًّا، فتمثل في جماعة الموزونجوللوس، والتي كانت تقطن إلى الداخل من مدينة ملندة، وتختلف هذه الجماعة عن باقي سكان الساحل الشرقي لإفريقيا من حيث عاداتها، وتقاليدها، وحتى الاختلاف كان في مسماها نفسه، والذي يعد غريبًا عن أسماء باقي الجماعات، فهم معرفون بهمجيتهم، وعدم امتلاكهم أرضًا يعيشون عليها، ولا بيوتًا للسكن بها، بل كانوا يسكنون الحقول، والغابات، ويضعون على رؤوسهم الطين العفن، بعد ما يمزجونه بمجموعة من الزيوت المتنوعة، ويعتقدون أنه يعطيهم رائحة متفردة، وكانوا يأكلون لحم الماشية نيئًا، دون أي نوع آخر من الطعام، ولذلك كله نشروا الخوف والذعر في قلوب أهالى ملندة، وأصبحوا يشكلون خطرًا على تجارتهم الداخلية والخارجية، وبالتالي كان لزامًا على حاكم ملندة، أن يسترضى هذه الجماعة عن طريق إمدادهم بالملابس، والجلود، حتى لا يفسدوا محاصيل سكان ملندة وتجارتهم، ويشنوا حربًا عليهم، وحتى لا تتأثر محاصيله، وتجارته[٢]، جراء أفعال هذه الجماعة المارقة.

- **سياسة حاكم ملندة مع البرتغاليين:**

لم تكن ملندة هي الوجهة الرئيسة للبرتغاليين، أثناء رحلتهم إلى الساحل الشرقي الإفريقي بقيادة فاسكو دي جاما، حيث اتجه في بادئ الأمر إلى مدينة ممبسة، التي

---

(١) جيان: وثائق تاريخية، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(2) pearson Michael, port cities, p 72.

استقبله سكانها المسلمون بالنفور والاستهجان، رغم الاستقبال الطيب الذي وجده في البداية من حاكمها(١).

ولقد كانت للصعوبات التي واجهها فاسكو دى جاما في ممبسة، الأثر المباشر الذي دفعه إلى مغادرة سواحل ممبسة، والإبحار شمالا باتجاه ملندة، التي وصلها في عام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م. وقد لاقى البرتغاليون استقبالا طيبًا في هذه المدينة، ودخلوا في علاقات ودية مع سلطانها، على الرغم من كونه مسلمًا، ومن باب توثيق العلاقات بين الجانبين، قام الحاكم بزيارة القائد البرتغالي ومنحه ملاحين لمساعدته في إكمال رحلته باتجاه السواحل الهندية (٢). هذا فضلا عن أنه أخبر فاسكو بأنه يستطيع أن يتزود في مدينته بكل ما يحتاجه من سلع وبضائع، وأن أهل ملندة "سيبيعونها لهم بصدق وبقلوب طيبة" (٣).

من ناحيته، ولرد الجميل للسلطان ومحاولة إرضائه، تعهد فاسكو بالإفراج عن جميع الأشخاص الذين كان قد أسرهم عند وصوله أمام سواحل المدينة، ومنحهم للسلطان كهدية(٤)، وقد ظل الأسطول البرتغالي في ملندة لمدة أحد عشر يومًا، قبل أن يقرر فاسكو مواصلة الرحلة باتجاه الساحل الهندي(٥).

---

(1) *Chroniques de João de Barros, Damião de Goes, Gaspar Corea, Garcia de Resende*, dans *Les grands navigateurs et colons portugais du XV^e siècle et du XVI^e siècle*, Tom. III, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro Almeida, éd. Ducharte, Paris, 1939, p. 91-92; G. Bouchon, *Op. cit.*, p. 155-156.

(2) *Voyages de Vasco de Gama: « relations des expéditions de 1497-1499 et 1502-1503 »*, traduit et annoté par Paul Teyssier et Paul Valentin, présenté par Jean Aubin, éd. Chandeigne, Paris, 1995, p. 120, 172.

(3) *Chroniques*, t. III, p. 94.

(4) *ibid*, p. 96.

(5) Ch. Nowell, *Histoire du Portugal*, traduit de l'anglais par H. Del Medico, Paris, 1953, p. 90.

في الواقع، يمكننا تفسير هذا الترحيب والاستقبال الطيب، الذي منحه سلطان ملندة للبرتغاليين، من خلال حقيقة مفادها أن هذه المدينة كانت في صراعات وخصومات سياسية مع المدن المجاورة لها، وبصفة خاصة ممبسة وكلوا، وأن السلطان كان يرى في هؤلاء الأوربيين الوافدين، طوق النجاة للتخلص من التبعية السياسية والخضوع لكلوا، كما أن المدينة كانت تأمل من خلال مساعدة البرتغاليين، في توسيع تجارتها على حساب المراكز التجارية الأخرى على الساحل الشرقي، مثل كلوا وممبسة(١).

وفي هذا الصدد تشير المؤرخة بوشون G. Bouchon إلى الدور المهم الذي لعبته ملندة في المشروع البرتغالي قائلة: "ستظل محطة (مرفأ) ماليندي باقية في الذاكرة الجماعية البرتغالية كلحظة مميزة في تاريخ اكتشافاتهم"(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن الملك البرتغالي مانويل(٣)، أظهر فرحة عارمة بما حققته رحلة فاسكو دي جاما الأولى باتجاه السواحل الإفريقية والهندية، وفي هذا السياق

---

(1) V. Godinho, *L'économie de l'empire portugais aux XV^e^ et XVI^e^ siècles*, Paris, 1969, p. 557.

(2) G. Bouchon, *Op. cit.*, p. 158.

(٣) الملك البرتغالى مانويل: يعد مانويل الأول هو الملك الرابع عشر للبرتغال، وقد حكم خلال الفترة الممتدة من ٩٠١هـ/١٤٩٥م وحتى عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م. وشهرة هذا الملك تعود إلى ارتباط اسمه بنجاح البرتغاليين في حركة الاكتشافات الكبرى التي مكنتهم من فرض سيطرتهم على السواحل الأفريقية وداخل مياه المحيط الهندي، بل والوصول إلى سواحل أمريكا الجنوبية. وبالرغم من أن الملك السابق له وهو يوحنا الثاني كان قد جهز رحلة استكشافية عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م للوصول إلى الهند تحت قيادة إستيفاو دا جاما، والد فاسكو دا جاما، إلا إن هذا الملك توفي بعد فترة وجيزة وتم تأجيل المشروع. ولما وصل مانويل للحكم، قرر استئناف رحلات الاستكشاف، وتمكن من أن يجني كل ثمار الجهود التي بذلها من قبله الملوك البرتغاليون المتعاقبون طوال ثمانين عامًا لاكتشاف الطريق البحري إلى الهند، لذلك، فقد أطلق عليه البرتغاليون لقب المحظوظ *Le Fortuné*، كما أنه بعد نجاح فاسكو دا جاما في الوصول إلى الشواطئ الهندية عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨، اتخذ دوم مانويل الأول ألقاب "سيد الفتوحات والملاحة والتجارة في إثيوبيا والجزيرة العربية وبلاد فارس والهند". ويصف المؤرخ البرتغالي جاسبار كوريا في بضع كلمات الرغبة الشديدة التي كانت لدى هذا الملك للوصول إلى الهند قائلا: "لقد عقد العزم في قلبه على مواصلة مشروعه وغزو ممالك الهند وإخضاعها لسيادته، عن طريق إرسال أسطول إلى هناك كل عام، وأخذ العهد على نفسه بأن يبذل=

يشير المؤرخ جاسبار كوريا Gaspar Correa إلى أن هذا الملك "أطلع نبلاء المملكة على الخطابات المكتوبة على ورق الذهب من قبل ملوك ملندة وكانانور، والتي أكد فيها هؤلاء الحكام صداقتهم وإخلاصهم لملك البرتغال"(١). كما أصدر الملك مانويل تعليمات إلى كابرال- قائد الحملة الثانية باتجاه الهند عام ٩٠٥هـ/١٥٠٠م- بحمل بعض الرسائل الموجهة إلى ملوك ملندة وكانانور، لشكرهم على حسن الاستقبال، الذي قدموه للبرتغاليين خلال رحلة فاسكو الأولى، ومطالبتهم بمواصلة مساعدتهم وتعاونهم (٢).

المبحث الرابع: أثر النشاط التجاري لمدينة ملندة على الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة

انعكس الرواج التجاري لمدينة ملندة، على الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة فيها، وتجلى ذلك واضحًا في الأشكال التالية:

فمن حيث الطرق، امتازت مدينة ملندة باستقامة الطرق وانتظامها، كما تميزت بجمال منازلها، ومتانة مبانيها المبنية من الحجارة، وتعدد طبقاتها وشرفاتها التي كانت تطل على الطرق الرئيسة للمدينة(٣).

=أقصى قدر من المثابرة حتى تحقيق هذه الرغبة، والنجاح في الحصول على هذه البلاد بالسلام أو بالحرب".

Chroniques, t. IV, p. 29; Ch. Nowell, *Histoire du Portugal*, p. 84, 88; G. Bouchon, *Albuquerque, le lion des mers d'Asie*, Paris, 1992, p. 41.

(1) *Chroniques*, p. 31.

(2) *Chroniques*, t. IV, p. 33.

(3) d.barbosa, a description of the coast of east Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century, notes and preface by baron henry stanley,London, 1886, p.١٢

وقد اشتهر سكان ملندة من العرب، بامتلاكهم المباني العالية الواسعة، وقد عرفوا بين أوساط الماليندبين بحسن الأخلاق، والكرم، ومحاسن الشيم من ظرف وأدب[١].

ويمتاز سكان ملندة بسمرة البشرة، وتنوع في اللباس، فعندهم الملابس الحريرية، والقطنية، التي تغطى نصفهم الأسفل، بينما يسيرون عراة من النصف الأعلى، كما ارتدى بعض سكانهم أردية تشبه العباءات، ويضعون على رءوسهم أغطية تتميز بالأناقة[٢]، كذلك امتازوا بحملهم السيوف والخناجر المكفتة، والتي تشير إلى مدى رفعة ذوقهم[٣].

أما النساء، فقد اشتهرن بثيابهن الفاخرة، والتي كانت على قدر كبير من الرفعة والذوق، كما امتزن بجمالهن، واعتدال قوامهن، حتى ضرب بجمالهن المثل في جميع بلدان الساحل الشرقي لأفريقيا[٤].

أما الطبقة الحاكمة في ملندة، فتم وصفها من قبل المراجع الأوروبية، والتي تحدثت عن طقوس الطبقة الحاكمة عند مقابلاتهم واحتفالاتهم، والتي تتسم بالكثير من مظاهر الأبهة، فحاكم المدينة يجلس على كرسى مطرز بقماش من الحرير، محاط بستائر من الجانبين، محمولا على أكتاف أربعة من الرجال، ويأتي من بعده أتباعه وأعيان مدينته، الذين كانوا يرتدون أفخم الملابس[٥].

واستكمالا لهذه الأبهة، كان حاكم ملندة يمتلك مركبًا خاصًّا به، تم تجهيزه خصيصًا له للتنقل والتنزه واستقبال الوفود، وكانت هذه المركب تسير بين السفن، مصحوبة بعزف الآلآت الموسيقية التي تعزف ألحانًا تطرب الحاكم[٦].

---

(١) جيان: وثائق تاريخية، ص ٣٢٠.
(٢) شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، ص ١٦٩.
(٣) جيان: وثائق تاريخية، ص ٣٢٠.
(٤) جيان: وثائق تاريخية، ص ٣٢٠.
(5) chroniques, vol 3, p 101.
(6) ibid, p 101.

أما من حيث عادات حاكم ملندة في استقبال الضيوف والسفراء، فكانت مراسم الاستقبال تسير وفق مراسم بروتوكولية معدة، كالتي حدثت مع وفد البرتغاليين المحملين برسالة من ملكهم إلى حاكم ملندة، حيث تبدأ المراسم باستقبال رجال الدولة للوفد القادم، وعقبها يرتجلون سويا باتجاه القصر الملكي، وهناك يصطف على الجانبين مجموعة من النساء يحملن أطباقًا خزفية تفوح منها رائحة العطور، ثم يدخل السفراء القصر لمقابلة حاكم ملندة، والذي يتصدر جالسًا على كرسي من الذهب والفضة(١).

وكذلك الحال بالنسبة لابن حاكم مدينة ملندة، والذي كان يجلس على كرسي من المعدن اللامع، ويرتدى ثيابا من الحرير مبطنة بالأطلس الأخضر، ويضع فوق رأسه عمامة فاخرة، يلتف حوله عشرون رجلا من العرب، مرتدين أفخم وأغلى الثياب، ويقف إلى جانبه شخص يحمل بيده سيفًا من الفضة الخالصة(٢).

أما طعام سكان ملندة، فكان مثل أغلب ما يطعمه سكان مدن الساحل الشرقي لإفريقيا، والذي يتكون من حبوب الدخن والأرز، كما احتوى الطعام الخاص بهم على اللحوم والأسماك(٣)، ويعد السمك من الوجبات الرئيسة عندهم؛ نظرا لوقوع ملندة على ساحل البحر، وبالتالي أصبح أهلها بارعين في مهنة الصيد، لذا حظيت ملندة بوفرة من الثروة السمكية(٤).

أما بالنسبة لاحتفالات سكان ملندة في مناسباتهم المختلفة الخاصة بهم، فقد وصفت بالبساطة، حيث عرف عنهم ممارسة العديد من الألعاب والمسابقات التي

---

(1) ibid, p 74.

(٢) جيان: وثائق تاريخية، ص ٣٢١.

(3) d.barbosa, a description of the coast of east Africa, p6.

(٤) الإدريسى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١ ص ٥٩.

Chroniques, vol 4,p72.

يتشاركون فيها وهم يمتطون الخيول، كما عزفت في مناسباتهم الفرق الموسيقية والغنائية، والتي كانت لا تتوقف عن العزف، والغناء[١].

وفى النهاية، يمكننا القول: إن هذه المظاهر الاجتماعية والحضارية لمدينة ملندة، كانت معادلا موضوعيًّا لانعكاس الرواج التجاري على المدينة وما تبعه ثراء مادي، ورخاء معيشي على الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة فيها. وتجلى ذلك واضحًا في مبانيها، وطرقها، وعادات أهلها، وأشكال لباسهم، وأنواع طعامهم وشرابهم. وطقوس حكامهم، وطرائق مراسمهم البروتوكولية، واحتفالاتهم الخاصة بهم.

(١) journal de voyage, p242.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تقف تاريخيًّا على أهمية الدور التجاري، وأثره على الحياتين: السياسية والاجتماعية لمدينة ملندة فى الساحل الشرقي الإفريقي خلال الفترة من منتصف القرن ٥هـ/١١م وحتى بداية القرن ١٠هـ/١٦م، ومن خلال مباحث الدراسة الأربعة، توصل البحث إلى مجموعة من النتائج هي:

١- لاحظت الدراسة اهتمام الرحالة الأوروبيين بأهمية مدينة ملندة، وإداراكهم لتفردها التجاري، مما دفعهم إلى الحديث عن وصفها، وروعة مناخها، وخصوصية جغرافيتها، وشكل عمارتها، ومكانة وحجم معاملاتها التجارية بين مدن الساحل الشرقي الإفريقي.

٢- كشفت الدراسة عن مدى أهمية الرحلات التجارية بين العرب المسلمين ومدينة ملندة، في نشر الدين الإسلامي بها، مما أثر بطريق غير مباشر في تعميق المعاملات التجارية بينهما، ومن ثم ازدهار النشاط التجاري لمدينة ملندة.

٣- أثبتت الدراسة دخول مدينة ملندة في علاقات تجارية مع العديد من التجار والبلدان، كالتجار العرب وبخاصة العمانيون، والتجار الهندوس، والتبادل التجاري مع ساحل مالابار الهندي، وجزيرة سيلان، ومدينة كامبايا الهندية، ومدينة بتهنة المجاورة لملندة.

٤- كشفت الدراسة تمتع مدينة ملندة بثروات طبيعية استغلها أهلها في معاملاتهم التجارية، فصنعوا من الأصداف المستخرجة من سواحلهم الصحاف والملاعق والقلائد، وصدروها للبلدان المجاورة، كما حققوا أرباحًا طائلة من تصدير الحديد إلى الهند، والذهب والعنبر والعاج إلى مدينة عدن العربية، ومدينة كمبايا الهندية، كما أفادوا أيضًا من واردات الدول التي دخلت في معاملات

تجارية معها، فاستوردوا من التجار العرب القطن، والنحاس، والتوابل، ومن كمبايا الهندية الأفاويه، والبهار، والنحاس، والزئبق، والأقمشة، ومن بتهنة جلود النمور.

٥- أسهمت الدراسة في كشف الدور الذي لعبته الرحلات التجارية، والهجرات العربية وغير العربية في حدوث نقلة نوعية، من خلال التبادل التجاري الذي تم بين التجار العرب والتجار الماليندبين، والذي أسهم بدوره في تبادل تجاري، تمثل في العديد من الصادرات والواردات بين البلدين.

٦- أكدت الدراسة أن الوجود المكثف للتجار المسلمين في ملندة، جاء نتيجة للجهود التي قام بها الحكام الماليندبون، والتسهيلات والمميزات التي منحوها للتجار العرب ؛ الأمر الذي دفعهم لتعيين عدد من القضاة المسلمين والكتبة، لتنظيم شئون دخول هؤلاء التجار إلى الموانئ الماليندية.

٧- كشفت الدراسة استخدام مدينة ملندة للعديد من الأنظمة المالية في معاملاتها التجارية مثل: أصداف الودع الغوري، والخرز الزجاجية، وأخيرًا، العملات المعدنية المصنوعة من البرونز والفضة، والتي ظهرت نتيجة تطور الحركة التجارية في بين ملندة ودول الساحل الشرقي الإفريقي.

٨- أبانت الدراسة أن الصراع السياسي بين ملندة وممبسة، كان معادلًا موضوعيًّا لمحاولة بسط النفوذ على مناطق الساحل الشرقي الإفريقي؛ لأجل الحفاظ على استمرار التميز التجاري لمدينة ملندة.

٩- أظهرت الدراسة أن حركة موزنجوللوس السياسية، شكلت خطرًا داهمًا على حركة التجارة الداخلية والخارجية لمدينة ملندة، مما فرض على حاكمها استرضاء هذه الجماعة، حتى لا تتأثر مكانة ملندة التجارية، داخل الساحل الشرقي الإفريقي.

١٠– برهنت الدراسة على ما حظيت به العلاقات السياسية بين ملندة والبرتغاليين، بخصوصية قائمة على المنافع المتبادلة، فالبرتغاليون وجدوا في ملندة حليفًا تجاريًّا مهمًّا على الساحل الشرقي، وملندة وجدت في البرتغاليين، حليفًا عسكريًّا يعينهم على التصدي لخصومهم السياسيين في البلدان المجاورة، وخير داعم لهم في توسيع تجارتهم على حساب المراكز التجارية لمدن الساحل الشرقي الإفريقي.

١١– بينت الدراسة انعكاس الرواج التجاري لمدينة ملندة، وما تبعه من ثراء مادي، ورخاء معيشي على الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة فيها. وتجلى ذلك واضحًا في شكل مبانيها، وتعبيد طرقها، وعادات أهلها، وأشكال لباسهم، وأنواع طعامهم وشرابهم. وطقوس حكامهم، وطرائق مراسمهم البروتوكولية، واحتفالاتهم الخاصة بهم.

الملاحق

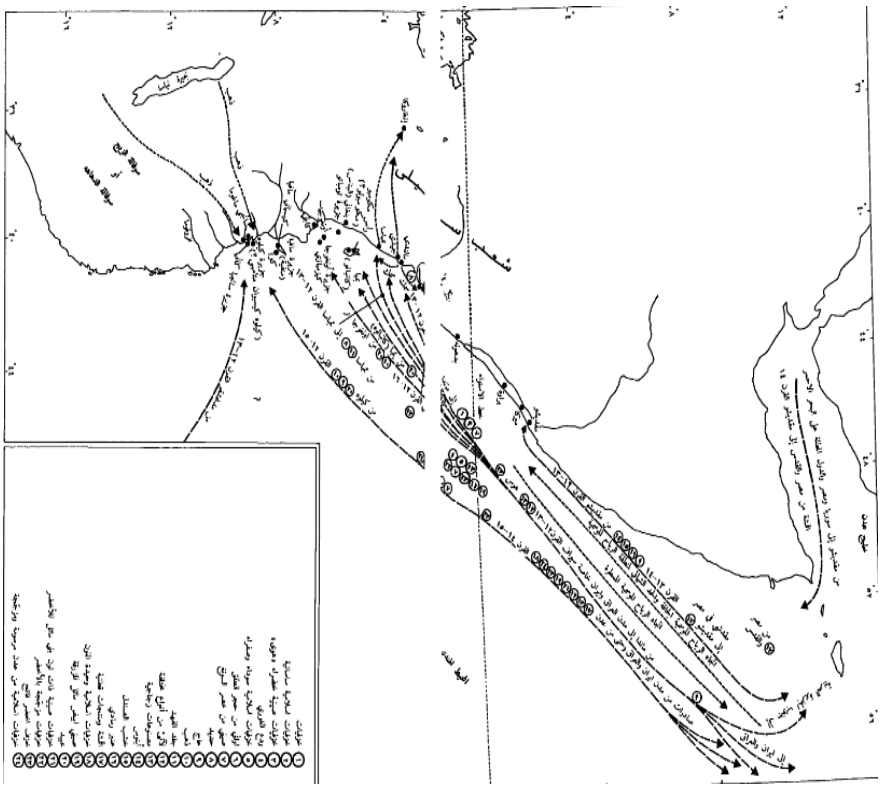

التجارة الداخلية والخارجية لدول الساحل الشرقى لإفريقيا بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر نقلا عن ف.ف.ماتفييف: تطور الحضارة السواحيلية، ص٤٥٧.

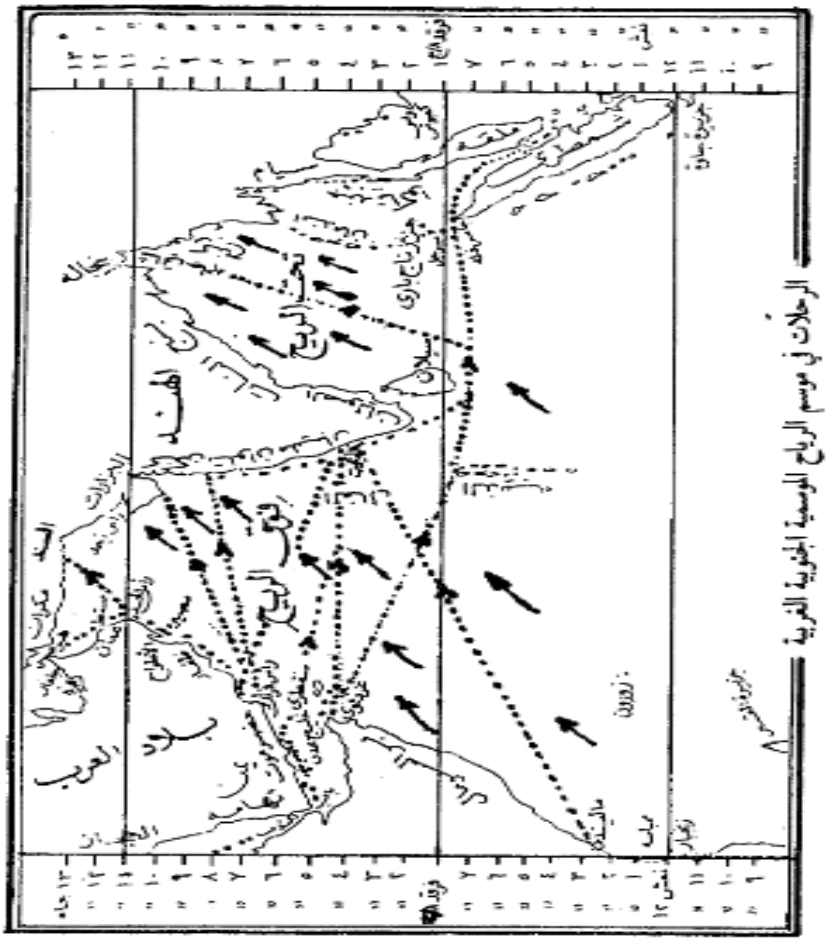

الرحلات التجارية في موسم الرياح الجنوبية الغربية

نقلا عن حسن صالح شهاب: أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندى، الطبعة الثانية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة– الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٩٠.

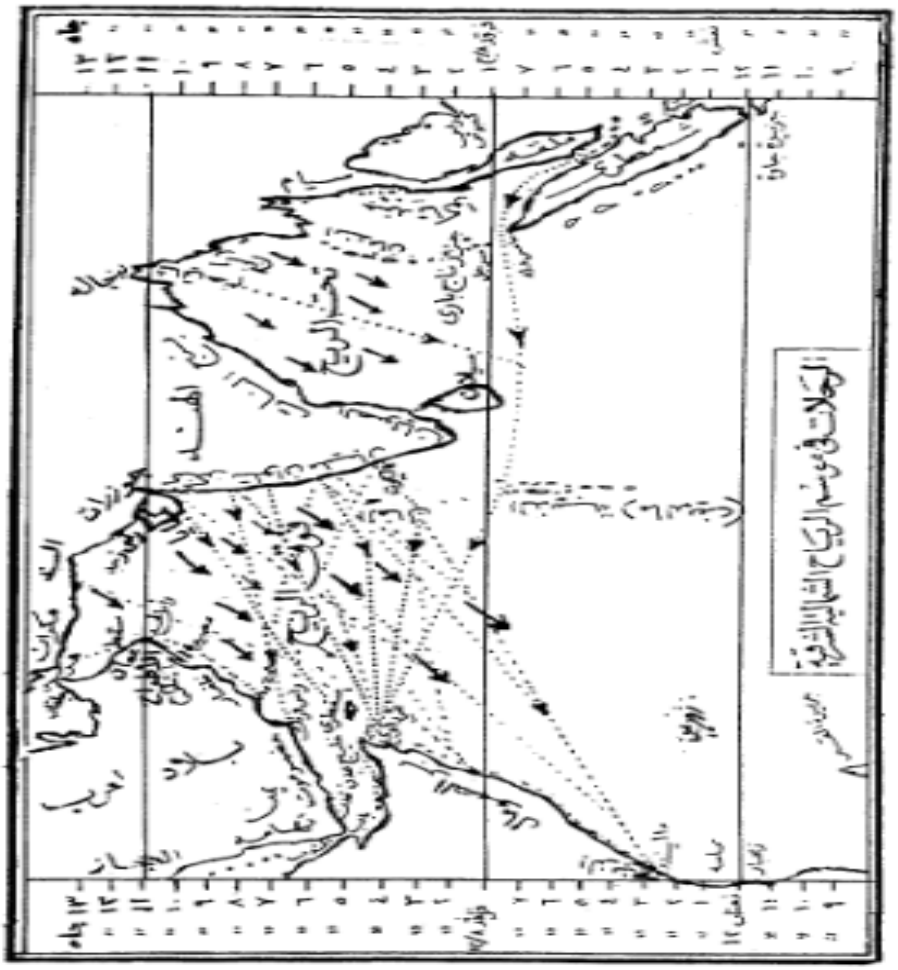

الرحلات التجارية في موسم الرياح الشمالية الشرقية نقلا عن

حسن صالح شهاب: أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، ص ١١٤.

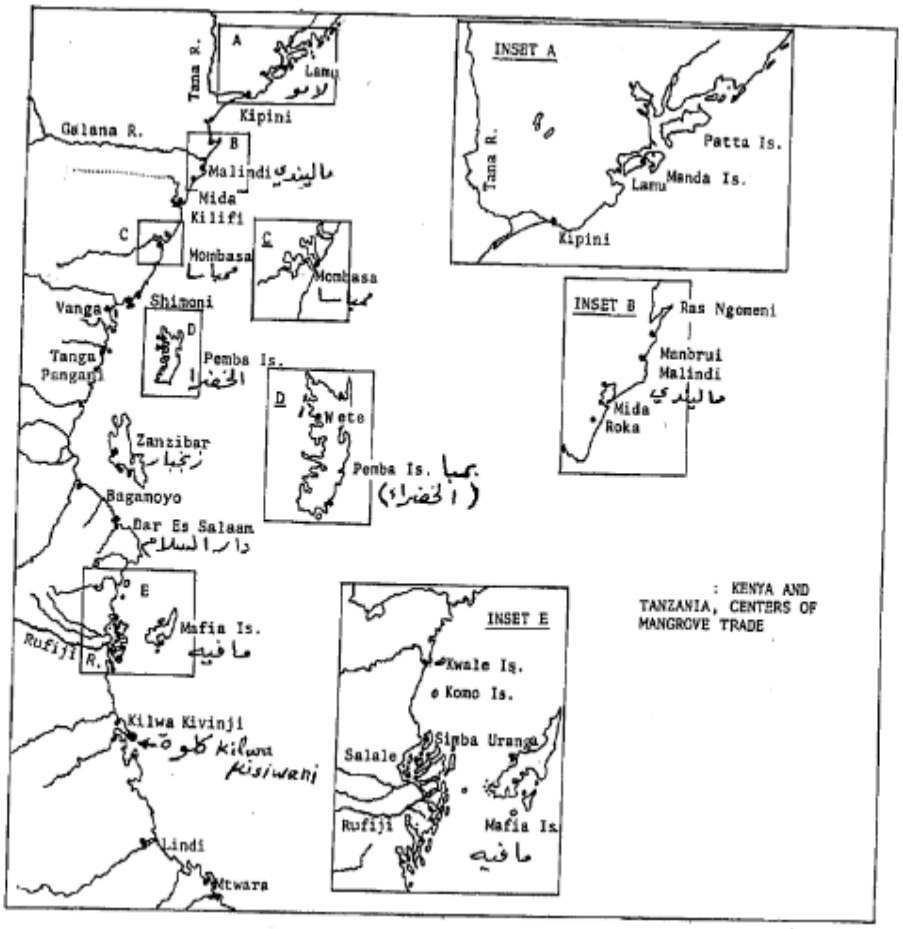

خريطة توضح المدن المجاورة لمدينة ملندة نقلا عن

حسن صالح شهاب: أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، ص ١٤٨.

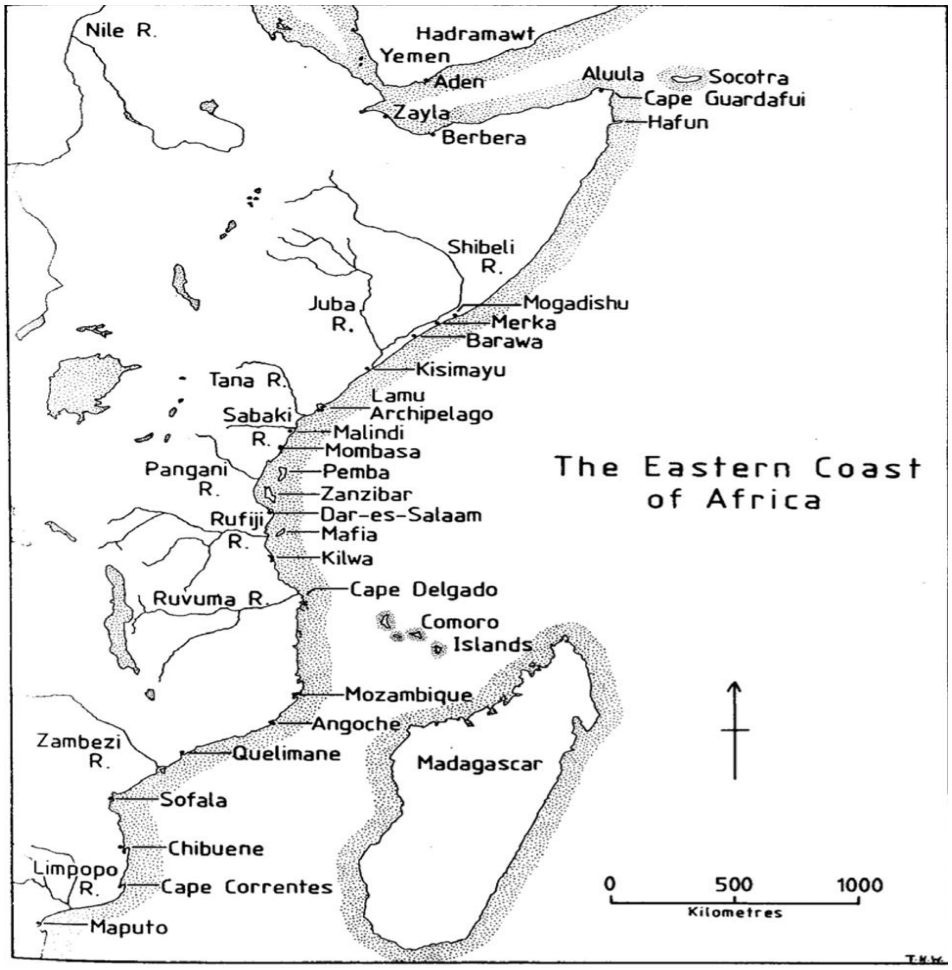

خريطة للساحل الشرقي الإفريقي يوضح موقع مدينة ملندة بالنسبة لباقي مدن الساحل

نقلا عن

Felix chami, kilwa and the Swahili towns: reflections from an archaeological prespective, Nordiska afrika institutet, Uppsala,2009, p 41.

قائمة المصادر والمراجع

- **المصادر العربية**:

١- الإدريسي(ت٥٦٠هـ/١١٦٦م): أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، (د.ت).

٢- ابن بطوطة: (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م):محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، قدم له وحققه ووضع فهارسه وحواشيه عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط– المغرب، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣- الحميري(ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م):محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م.

٤- القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م):أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبع بمطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.

٥- ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م):شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت– لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- **المراجع العربية والأجنبية المترجمة**

٦- جمال قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة– مصر، ١٩٩٦م.

٧- جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وامبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م.

٨- جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، نقله إلى العربية يوسف كمال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م.

٩- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الطبعة الأولى، مكتبة المتنبي، الدمام– المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٩م.

١٠- حسن صالح شهاب: أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، الطبعة الثانية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة– الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

١١- شوقي عبد القوى عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (٤١-٩٠٤هـ/٦٦١-١٤٩٨م)، نشر عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٢- شوقي عطا الله الجمل– عبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ١٩٩٦م.

١٣- صلاح العقد، جمال زكريا قاسم: زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية– القاهرة، ١٩٩٥.

١٤- ف.ف.ماتفييف: تطور الحضارة السواحيلية، مقال داخل تاريخ أفريقيا العام "أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر"، مطبوعات اليونسكو، باريس، ١٩٨٨م.

١٥- المغيري: جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد على الصليبي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

- **المراجع الأجنبية**:

16- *Chroniques de João de Barros, Damião de Goes, Gaspar Corea, Garcia de Resende*, dans *Les grands navigateurs et colons portugais du XV^e siècle et du XVI^e siècle*, Tom. III, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro Almeida, éd. Ducharte, Paris, 1939.

17- C. De Silva, "Indian Ocean but not African Sea : The Erasure of East African Commerce from History", in *Journal of Black Studies*, Vol. 29, N. 5, 1999.

18- Ch. Nowell, *Histoire du Portugal*, traduit de l'anglais par H. Del Medico, Paris, 1953.

19- davis, r.hunt, encyclopedia of African history and culture, library of congress cataloging-in-publication data, vol 2,.

20- d.barbosa, a description of the coast of east Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century, notes and preface by baron henry stanley,London, 1886.

21- E.alpers, Gujrat and the trade of east Africa, in the international journal of African historical studies, vol 9, no.1, 1976.

22- Felix chami, kilwa and the Swahili towns: reflections from an archaeological prespective, Nordiska afrika institutet, Uppsala,2009

23- Gasper Correa, the three voyages of vasco da gama and his viceroyality, from the lendas da india of gaspar correa, translated from the Portuguese with notes and introduction by Hon. Henry Stanley, printed for the Hakluyt society, London,1869.

24- G. Bouchon, *Albuquerque, le lion des mers d'Asie*, Paris, 1992.

25- G. Bouchon, "A propos de l'inscription de Colombo (1501): quelques observations sur le premier voyage de João Da Nova dans l'océan Indien", in *L'Asie du Sud à l'époque des grandes découvertes*, éd. Variorum Reprints, Londres, 1987.

26- J. Laharpe, *Abrégé de l'histoire générale des voyages*, Tom. I, Paris, 1820, p. 15; G. Bouchon, *Vasco de Gama*, Fayard, 1997.

27- Jorge de torres rodriguez, the history of archaeological research in somaliland and Somalia, northeast African studies, vol 18, nos1-2, 2018.

28- journal du voyage de vasco de gama dans l'Inde in voyageurs ancients et modernes, ou choix de relations de voyages les plus interessantes et les plus instructives, par: M.Edouard Charton, Tome3 (voyageurs modernes, quinzieme siècle et commencement du seizieme), ed. Bureaux du magasin pittoresque, Paris, 1861.

29- J. Stella, *Essai sur l'histoire du Portugal depuis la fondation de monarchie jusqu'à la mort de D. Pédro*, Tom. I, Bruxelles, 1841.

30- L. Devic, *Les Pays des Zendjs (la côte orientale d'Afrique au Moyen-Âge)*, Paris, 1883, p. 70; C. Coquery-Vidrovitch, *Histoire des villes d'Afrique noires des origines à la colonisation*, Paris, 1993.

31- M. Pearson, "Indians in East Africa: The Early Modern Period", in *The world of the Indian Ocean, 1500-1800*, Hampshire, 2005.

32- N. Chittick, Indian relations with east Africa before the arrival of the Portuguese, in journal of the royal asiatic society (new series), no.112, 1980.

33- pearson Michael, port cities and intruders, the johns hopkins university press, London, 1998.

34- Rachel A. Koestler-Grack, *Vasco da Gama and the Sea Route to India*, Chelsea House Publishers, 2006,

35- R. Pouwels, "Eastern Africa and the Indian Ocean to 1800: Reviewing Relations in Historical Perspective", in *The international journal of African Historical Studies*, Vol. 35, N°. 2/3, Boston, 2002.

36- vasco de gama, la relation du premier voyage aux indes (1497-1499), editions chandeigne, paris, 1998.

37- *Voyages de Vasco de Gama: « relations des expéditions de 1497-1499 et 1502-1503 »*, traduit et annoté par Paul Teyssier et Paul Valentin, présenté par Jean Aubin, éd. Chandeigne, Paris, 1995.

38- V. Godinho, *L'économie de l'empire portugais aux XV^e et XVI^e siècles*, Paris, 1969.